

الأصول المعرفية للنظرية اللسانية الحديثة لـ فردينان دي سوسيرالروافد والسياقات

د/ عبد الحميد عمروش
جامعة العربي التبسي، تبسة.

الملخص:

إن مساهمة دي سوسير في نشأة اللسانيات تشمل أسلوبا فكريا ومنهجيا شاملا، وإطارا من الأسس والمبادئ المتكاملة، تدور ضمنه اليوم كثير من المناقشات الأساسية، ولكن هل كانت الكأس قبله فارغة؟

تتهض هذه الدراسة لبيان الجهود الكبيرة التي قدّمها اللغويون والفلاسفة والمناطق... وغيرهم في مجال اللغة، والتأسيس لعلم اللغة.

Abstract:

De Saussur's contribution to the emergence of linguistics includes a comprehensive intellectual and methodological approach, and a framework of integrated principles and principles. Today, there are many basic discussions. But was the cup before him empty? This study presents the great efforts made by linguists, philosophers, regions, and others in the field of language and the establishment of linguistics.

مقدمة:

إن عديد الموضوعات التي تناولها دي سوسير في محاضراته "كانت رائجة في الأبحاث المنجزة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكتاب (Cours de Linguistique General) يشكّل ما يمكن نعتّه بقضيّة إبيستيمولوجية؛ أي طريقة مختلفة جذريا في دراسة الوقائع اللغوية، وبالفعل فإن عمل دي سوسير يؤسّس قطيعة مع اللسانيات المقارنة المعاصرة له، وذلك باقتراحه مقارنة لا تاريخية، ووصفية ونسقية (ستتّعت لاحقا ببنيوية)...لقد حظي كتاب CLG بمرتبة الرمز¹ ولا زال حتى اليوم يشكّل أبرز الأسس في الدرس اللساني الحديث، غير أن جهوده العظيمة، وآراءه الدقيقة، لم تتأسّس من فراغ؛ فقد أدّت العناية باللغة وبالمشكلات اللغوية العملية إلى نشأة العلم اللغوي بشكل مستقل في أكثر من مركز من مراكز الحضارة، وكان لكل مركز منها مزاياه ومنجزاته². وإن النظريات المثمرة في حقول اللغة، لم تنشأ في التفكير فيها بالضرورة.

وقد دأبت الحضارات المختلفة منذ العصور الأولى لبداية التفكير في اللغة على استعمال مصطلح نحو أو (Grammaire) وذلك اعتبارا لما يقدّمه من حلول للمشكلات المطروحة في تلك العصور على الفكر اللغوي، ولم يبدأ التفكير في تناول جديد للغة إلّا مع تطوّر العلوم التجريبية في القرن الثامن عشر، وفي هذا المناخ ظهر مصطلح (Linguiste) سنة 1816م ثم ظهر مصطلح لسانيات (Linguistique) سنة 1833م ليواكب هذا التطوّر، وكان يُعنى بطريقة متخصصة في دراسة اللغة، وهو ما عكسته اللسانيات التاريخية والمقارنة³. وعلى هذا نحاول أن نرصد أبرز السياقات التي أدّت إلى نشأة علم اللغة (اللسانيات).

السياق التاريخي لنشأة اللسانيات:

نشأ علم اللغة في وقت شهدت فيه الدول الأوروبية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ظهور الثورة الصناعية؛ حيث ارتبطت هذه الثورة أساسا بالتوسّع الأوروبي، وكانت معرفة الآخر تمرّ حتما من خلال لغته، وفي مقابل ذلك ارتبط تطوّر العلوم اللغوية بتاريخ

الثقافات والأديان التي تلعب فيها اللغة دورا مركزيا مهمًا، وبالأبحاث الأنثروبولوجية والفيلولوجية، التي ارتبطت عموما بالرحلات التبشيرية، والاستكشافية في أصقاع العالم كافة⁴.

وقد عرف الدرس اللغوي في الغرب نهضته بعد اكتشاف السنسكريتية "وازهدها الدراسات الفيلولوجية، في بحث النصوص القديمة، ومقارنة اللغات، ومحاولة إعادة صياغة اللغات الأولى، ثم محاولة الوصول إلى قوانين...على أن الطابع العام لهذه الدراسة ظل في حيز التناول التاريخي للظواهر"⁵. ومن هنا أعطيت الدراسات اللغوية قطب الرحي، حيث تؤدي اللغة دورا مهما في الفعل والتأثير.

نتجت كل هذه التطورات في وقت أعطي فيه العقل دورا محوريا ورياديا حيث تركز التساؤل حول ما إذا كان العقل يرى الأشياء كما هي على حقيقتها، أم أنه يقتصر على رسم تصورات حول هذه الظواهر، من دون النفاذ الفعلي إلى ذواتها⁶. ومن هذه الناحية يبدو أن إدراك العلاقة المعقدة بين تطوّر المعرفة العقلية المجردة؛ والتغيّر الملازم لحركة العلوم الطبيعية في المجتمع، قد يضيف بعض الموضوعية في تتبّع هذا التداخل المعرفي العلمي، الذي أعطى للعلوم اللغوية بعدا جديدا.

سياق العلوم الطبيعية والفلسفية:

نتحدث عن سياق العلوم الطبيعية والفلسفية ونشأتها في الغرب، وحسبنا أن ندرك بعد ذلك كم هي متجانسة حركة هذا التطوّر في أبعادها الفلسفية والعلمية والثقافية...واللغوية.

لقد ارتبطت العلوم الطبيعية مع الفلسفية؛ لما تميّز به القرن السادس عشر والسابع عشر -خصوصا- بالتقارب الكبير بين العلم والفلسفة، فقد لعبت على سبيل المثال دورا شديدا الأهمية في سوق الحجج التي تؤيد النظام (الكوبرنيكي) وفي تطوير علم البصريّات، لقد كان هذا هو العصر الذهبي للفلسفة العلمية التي لعبت دورا أساسيا في بناء العلم الحديث، الذي حلّ محلّ المذاهب السابقة⁷، والذي أدّى إلى تغيّرات حقيقية في بنية العقل الغربي، حيث شاع التفكير العقلي العلمي، في إطار منهجي مغاير تماما للإطار اللاهوتي، والواقع أن هذا النمط

الجديد من التفكير، قد ظهر من تناقضات الفكر اللاهوتي⁸، حيث هيمنت المؤسسات الكنيسية على الحياة كافة في شؤونها العامة والخاصة.

وقد تعرّض مفهوم العقل إلى تغيّرات جذرية مع بداية عصر النهضة وتمّ اختزال وظيفته انطلاقاً من الخبرة التجريبية، فاستبدل نموذج تفكير بآخر، وتمّ الاستغناء التدريجي عن اللاهوت، من قبل نخبة من أبرز العلماء ك: كوبرنيكوس، وكبلر، وفرانسيس بيكون، وغاليليو... وغيرهم، الذين شكّلوا نواة العصر الحديث، وهكذا وفي ظل سعيها للحصول على ما يمكن أن تؤسّس عليه أصول المعرفة اللغوية من سياق الأبحاث الفلسفية والعلمية، فإننا نرصد أصولاً وأساساً علمية ومنهجية -تؤسّس للنظرية اللغوية- من فكر هؤلاء.

أولاً: غاليلي Galilei (1564-1642م):

يصوّر أرنست بلوخ جهد غاليلي، بقوله: "ومنذ غاليلي أغنى الإنسان باستمرار معرفته بالطبيعة، وسعى لفهم القوانين الداخلية التي ترتبط فيها الظواهر"⁹، ولم يقتصر جهد غاليلي على اكتشاف القوانين؛ وإنما كان الذي يشغله هو إرساء دعائم المنهجية العلمية؛ حيث لم يبلور منهجيته العلمية صدفة، وإنما أحرز ذلك بوساطة النقد الفلسفي للأفكار السائدة في عصره¹⁰، وأثمر عمله تحرير الممارسة العلمية من الشوائب الإيديولوجية والفلسفية، وهذه خطوة أولى لتأسيس العلوم.

ثانياً: رينيه ديكارت René descartes (1596-1650م):

وأما ديكارت فقد خلصّ الأفكار الجديدة من التصوّرات القديمة بوساطة النقد العلمي، والمراجعة المتواصلة. وقد سعى لدراسة الفلسفة دراسة جدية انطلاقاً من منهجه الذي بناه على أساس رياضي؛ يقول: "إذا أردنا أن نفرغ لدراسة الفلسفة دراسة جدية، والبحث عن جميع الحقائق التي في مقدورنا معرفتها؛ وجب علينا أن نتخلّص من أحكامنا السابقة... وأن لا نصدّق منها إلا التصوّرات التي ندركها في وضوح وتميّز"¹¹. وقد استند ديكارت إلى المبادئ الرياضية، وقام بإجراء مراجعة نقدية عامّة لما يحمله الذهن من أفكار لا تحكمها روابط

رياضية، وكانت غايته أن يصل بالميتافيزيقا إلى أن تصير علما دقيقا يمكن البرهنة على قضاياه بيقين رياضي¹².

وهكذا نستطيع أن نقول: إن ديكارت سعى إلى تأسيس علم الفلسفة، وإيجاد الآليات العقلانية الرياضية التي تحكم نمط هذه المعرفة. وهو يقترح شروطا توقّر للبحث الأول نوعا من الدقة تماثل البحث الثاني، ومن تلك الشروط:

أولاً: ألا نشتغل إلا بمعان واضحة ومتميزة.

ثانياً: أن نرتّب جميع أفكارنا في نسق خاص.

ثالثاً: أن نذهب دوما من المعاني إلى الأشياء¹³... وغيرها.

وبهذه المقولات يجعل من طائفة كبيرة من الحقائق الفلسفية كيانا متجانسا، تخضع جميعها لنسق واحد، تعادل في طبيعتها ما في نظرية (فردينان دي سوسير) اللغوية من تماسك وشمول.

ثالثاً: جون لوك John lockh (1632-1704م):

نظّم جون لوك الأطر الفلسفية للتفكير العلمي، الذي نشط بعد الثورة الكوبرنيكية في مجالي المبادئ العقلية، والقيم التجريبية، وفي المقابل عمّق أسس الفكر التجريبي، حينما عارض مذهب القائلين برّد المعرفة إلى الفطرة، ونادى بأن كل معرفة مستمدة من التجربة¹⁴، رافضا بذلك المبادئ الفطرية. كما أن العقل عنده لا يفكر بذاته؛ وإنما يفكر بالقياس إلى المادة التي يحصل عليها من الخبرة.

وقد أدى هذا النقد إلى عدة نتائج مهمة في تاريخ الفكر الفلسفي التجريبي، ومن أبرز هذه النتائج: أن جون لوك أول من وضع مشكلة المعرفة موضع البحث والتعمّق، وقدم تصوّرات مهمة حول المفاهيم الفلسفية، وطرائق تحليلها، وطبّق الأسلوب التجريبي للبحث في موضوع نظرية المعرفة¹⁵.

و قدّم جون لوك مبادئ وتصورات، وضعت في خدمة العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية على حد سواء، وكانت هذه المبادئ بمثابة القوانين والأطر التي ستنكئ عليها العلوم

الإنسانية -فيما بعد- للتعريف بنفسها، والتأسيس لمبادئها؛ كالاقتصاد والاجتماع واللسانيات... وغيرها. وهذه خطوة أخرى تتضاف إلى خطوات سابقة في المعرفة العلمية والمنهجية.

رابعاً: إيمانويل كانط Emmanuel Kant (1724-1804م):

كان إيمانويل كانط صاحب نزعة توفيقية (syncretisme) بين التيار التجريبي والعقلي¹⁶، وقد جعل مصدر المعرفة في العقل والتجربة؛ فالعقل يمدنا بالمبادئ العامة، والتجربة تمدنا بالكيفيات المحسوسة، وهكذا فقد رفض كانط نظرية جون لوك القائلة: بأن كلّ تصوّراتنا إنما مصدرها الخبرة، وفي ذات الوقت لم يقبل نظرية ديكارت في الأفكار الفطرية، إلاّ أنّه اعتقد بوجود تصوّرات ومبادئ تنشأ من العقل ذاته، عندما يتعرّض هذا العقل للخبرة¹⁷.

وقد زحزح كانط مفهوم الميتافيزيقا من دلالاته التقليدية الموروثة، وأصبح ينحو إلى تأسيس (العلم النظري للعقل المجرد) أو (فلسفة العقل المجرد) وهو لا يخفي رغبته بأن يجعل للعقل علماً مناظراً للعلوم الطبيعية، وذلك احتذاء بما قام به علماء عصره¹⁸. وهذه خطوة أخرى من الخطوات التي تسعى لتأسيس مبادئ وأصول العلوم الإنسانية، انطلاقاً من التأثير المباشر وغير المباشر للرياضيات. وقد اعتمدت فلسفة كانط عموماً على البحث عن وجود نسق أساسي ترتكز عليه كل المظاهر الخارجية للتاريخ¹⁹. وهذا ما يمهد للبنية فيما بعد، ويعطي فكرة أولية كافية لدي سوسير لبناء نظريته اللغوية.

خامساً: فريدريك هيجل Fredrichhegel (1770-1831م):

انتقد هيجل فلسفة كانط، وعزّف العقل - في كتابيه (الموسوعة) و(المدخل إلى الفلسفة) - بأنّه: "الحقيقة في ذاتها ولذاتها"²⁰. وإذا قلنا "ذات الشيء، أو ذات هذا الشيء، أو ذات شيء ما، فإنّما نلتبس به ماهيته التي هي أخصّ ممّا يدلّ عليه الشيء"²¹. وعبارة هيجل عن العقل، من الأسس المعرفية التي ترتكز عليها منظومة دي سوسير اللغوية.

ويرى هيجل أن الحركة الجدلية هي الانتقال من الوعي إلى الوعي بالذات ثم من الوعي بالذات إلى العقل؛ فالعقل يجمع بين (الاختلاف) و(الهوية) أو بين (الموجود في ذاته) و(الموجود لذاته)، وبالتالي يقيم ضرباً من الهوية بين الفكر والوجود. ويرى أن العقل هو

المبدأ الذي يسلم بالتمييز والاختلاف، ولكنه يرى في الوقت نفسه الهوية الكامنة، وراء هذا الاختلاف. والتفكير عنده مرتبط باللغة التي هي مستودع التفكير، ويشير هيجل إلى الارتباط اللغوي بين الشيء والفكر، فجوهر الأشياء هو الفكر²².

ويمكن التقاط أصل الجدل الهيجلي "من وسط الشذرات المنسوبة إلى (هيرقليطس) الذي عرف عنه القول: بالتغيير وعدم الثبات، والذي تعود إليه فكرة (صراع الأضداد) فجذله - على غرار جدل سلفه الإغريقي- يتركّب من عملية توافق الأضداد، في الفكر وفي الأشياء على السواء"²³.

ومن نظرة فاحصة إلى منظومة المفردات المستخدمة، ندرك إلى أي حدّ يشبه هذا الجدل الهيجلي في العقل، مبادئ دي سوسير في اللغة؛ فالحركة الجدلية عند هيجل التي تتمثل في الانتقال من الوعي بالموضوع إلى الوعي بالذات، والحقيقة في ذاتها ولذاتها، هي ما نجد لها صدى عند دي سوسير في دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها. وإذا كان العقل عند هيجل يجمع بين الاختلاف والهوية؛ فإن اللغة عند دي سوسير تعمل بالاختلاف والقيم الخلفية، ومن ثمّ تتأسس الهوية، وإذا كان العقل يسلم بالتمييز والاختلاف عند هيجل؛ فإنه لا يوجد في اللغة -حسب دي سوسير- إلا الاختلاف.

وقد حاول هيجل أن يضع (علم المنطق) لضبط عمل العقل، والأطر التي تحكمه، كما حاول دي سوسير - فيما بعد - وضع أسس ومبادئ عمل اللغة.

سياق الدراسات اللغوية:

تتصل العلوم ببعضها البعض وترتبط بالمناخ العام، وقد أظهر الإنسان منذ خلق اهتماما كبيرا باللغة، وهكذا وصفت اللغة السنسكريتية تفصيلا -على سبيل المثال- ماضي العقيدة الهندوسي السحيق، كما كرّس العالم المسيحي جانبا كبيرا من أنشطته الفكرية لدراسة اللغة اللاتينية...²⁴.

وقد أضحى الإنسان بلا وجود إلا داخل الكلمات التي تضيف عليه وجوده وقيّمته، إننا نولي اهتماما -حسب- أهم المحطّات التي أسّست لعلم اللغة (اللسانيات) ارتباطا بسياق البحث اللغوي لا غير.

البحث اللغوي عند الإغريق:

في القرن السادس ق.م بدأ الفكر الإغريقي يتبلور في جميع الميادين وتسلسل الأبحاث اللغوية الغربية يبدأ من تلك الفترة؛ وهذا ما سوف يسمح لنا بإدراك أفضل لروافد اللسانيات الحديثة وسياقاتها.

إن النظر في تطوّر العلوم اللغوية عند الإغريق، يعطي صورة واضحة على أنها لم تكن تدرس اللغة بمعزل عن الأبحاث الفلسفية والاجتماعية... وغيرها، "ونجد صدًى لهذا عند لوروي Leroy وأيضاً عند لوجون le jeune الذي كتب يقول: "الظاهر أن الإغريق اعتنوا ببنية اللغة ونشأتها أكثر من عنايتهم بتطور اللغات وتنوعها"، والحق أن هذه العبارة تحدّد نتائج الأبحاث اللغوية في اليونان القديمة"²⁵. كما أن استنباط نظام أبجدي لكتابة اللغة اليونانية -حيث الكتابة تؤثر في اللغة وتحورها على حدّ تعبير دي سوسير- قد أعطى دفعا للبحوث اللغوية لا يزال أثره إلى اليوم.

وأما الرواقيون فقد صاغوا ثنائية اللفظ والمعنى مميّزين في ذلك بين الدال والمدلول؛ اللذين يذكّرنانا باصطلاح دي سوسير، ولكن يبدو أن المدلول لم يكن صورة ذهنية بشكل كامل،²⁶. وقد حصل البحث اللغوي الاستقلال لأول مرة عند الرواقيين. ويرى روبنز أن الأسئلة تركّزت على اللغة اليونانية، في إطار مسألتي القياس والشذوذ²⁷. وكان لهذا الخلاف دور حاسم في النشأة المبكرة للنظرية اللغوية.

ومع الإسكندرانيين أصبحت اللغة موضوعا للدراسة، وقبلهم لم يكن النحو إلا مجرد فرع من فروع الدراسات الفلسفية اليونانية، والجديد في مؤلفاتهم هو إرساؤهم فقه اللغة في العالم الغربي²⁸.

واعتنى الإغريق باللغة اليونانية وجعلوها وحدها مادّة البحث اللغوي هذه العناية هي التي حملتهم على إهمال اللغات الأجنبية إهمالا يكاد يكون تاماً²⁹. ومن ذلك الوقت قطع البحث اللغوي الغربي أشواطاً رائدة، أوصلته إلى ما يسمى باللسانيات المقارنة والتاريخية.

تطوّر الدراسات المقارنة والتاريخية:

أدت عوامل التبشير المسيحي، إلى ترجمات للنصوص الدينية الأساسية كالتوراة والإنجيل، وغالبا ما تمت هذه الترجمات إلى لغات - ظلت في ذلك الحين - محرومة من الكتابة، مما حدا إلى استحداث أبجديات لها. وكان لا بد لهذا النشاط الديني الحثيث، أن يسهم في توجيه الانتباه إلى المسائل اللغوية والصوتية بوجه خاص³⁰، وباطلاعهم على أعمال اللغويين العبريين؛ فإن العلم الغربي قد حقق اتصالا فكريا لأول مرة مع لغة غير هندوأوروبية³¹.

ومع بداية عصر النهضة ازداد الاهتمام باللغة، ومن الذين وضعوا بصمتهم على مرحلة الانتقال من العالم الوسيط إلى العالم الحديث نجد بيير راميه P. Ramee المولود حوالي 1515م (والذي نودي به مبشرا للبنوية الحديثة)³²، وتم هذا الانتقال عن طريق الاتصال بين العلم اللغوي الأوربي، وأعمال القواعديين العرب واليهود في العصور الوسطى المتأخرة... ولكن استعمار العالم الجديد، وإرسال البعثات التبشيرية؛ كل هذا قام بدوره في تنبيه العلماء إلى ثروة من التنوع اللغوي في العالم، لم يكونوا على اتصال بها من قبل³³.

وأما بداية تشكّل علم اللغة المقارن والتاريخي، فقد "ظهرت في مؤلفات مثل كتاب كانينيوس Kaninus (بنية اللغات) الذي أذاع في أوروبا فكرة القرابة بين اللغات السامية"³⁴.

وهكذا دخلت فكرة قرابة اللغات مرحلة جديدة، ففي عام 1786م أبدى وليام جونز (William Jones) ملاحظة مهمة عن اللغة القديمة للقانون الهندي (السنسكريتية) الذي كان يدرّسه، حيث لاحظ أنها تتشابه كثيرا مع اللغات الأوربية، وقادته هذه الملاحظة إلى فكرة الأصول المشتركة لعدد من اللغات. وهكذا نشأ علم اللغة المقارن.

ولقي اقتراح وليام جونز هذا صدى كبيرا عند علماء اللسانيات، وعلى هذا يكون قد أسّس للقرابة اللغوية؛ التي تأسست بدورها على أعمال الحركة العلمية التي أسسها فريديريك وولف Fredrich wolf سنة 1777م، أو ما يعرف بالدارسات الفيلولوجية³⁵. وهكذا بدأ علم اللغة المقارن يرسم لنفسه مسارا جديدا، وخطا حقيقيا.

ومنذ ظهور كتاب (في تاريخ اللغة الألمانية) ل: شيرر scherer (برلين 1868م) تغيرت معالم علم اللغة المقارن تغيرا كبيرا "وشقّ لنفسه منهجا يختلف اختلافا جوهريا عن المنهج الذي انتهجه النحو المقارن في نصف القرن الأول من وجوده"³⁶. ومن هنا عبّدت هذه

التصورات الطريق لدراسات لغوية أعمق وأقرب إلى السمات العلمية، وقد تولّاهم ثلّة من أبرز علماء الدراسات اللغوية المقارنة والتاريخية.

أولاً: فريدريك شليجل (Frederick schlegel) . (1772-1829م):

أتى شليجل بمصطلح النحو المقارن، واهتم كثيرا بالسنسكريتية، وقام بتأسيس دراسات لها في ألمانيا وكان لدراسة الأوروبيين لهذه اللغة أثر مزدوج، فقد شكّلت مقارنتها باللغات الأوروبية المرحلة الأولى في التطور المنهجي لعلم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي، إضافة إلى ذلك أصبح الأوروبيون على اتصال بتراث الهند اللغوي، وكان في كثير من فروع علم اللغة الأوربي عميقا ومؤثرا³⁷.

ثانياً: فون هامبولت (Von hanboldt) (1767-1835م):

وأما هامبولت فقد كان من أعظم الباحثين اللسانيين في القرن التاسع عشر حيث يعدّ المنشئ الحقيقي للسانيات العامّة حسب بعضهم، وأما من حيث المنهج فقد عارض هامبولت الدراسة الدياكرونية، وكان اهتمامه منصبا على الدراسة السانكرونية، وهذا يعدّ حقا تغييرا جذريا في الأبحاث المتعلقة باللغة، وقد عدّه دي سوسير عالما لغويا بارزا.

ثالثاً: جاكوب غريم (Jacob grim) (1785-1863):

وأما غريم فقد اشتهر بقانونه الذي أصبح يسمى (قانون غريم) الذي "ظهر لأول مرة في الطبعة الثانية لمؤلفه: Deutsche grammatik (1822م)، ومن هنا ندرك الأهمية القائمة في تاريخ صياغة غريم بوصفها أول القوانين الصوتية التي كان لها أن تشكّل الأسرة الهندوأوروبية، والأسر الأخرى وتدعمها³⁸.

وفي هذه الطبعة جمع عيّات متعدّدة من لغات مختلفة، وبين أطراد التطابقات الصوتية في هذه اللغات، وذلك بتتبّع ملامحها الصوتية، وكأنه بدأ بالوصف في وقت مبكّر، وما يدلّ على ذلك قولته المشهورة: "يجب وصف اللغة كما هي كائنة لا كما ينبغي أن تكون"³⁹. وهكذا عدّ غريم بحق مؤسس الدراسات الجرمانية، وذلك لتشبعه بخلفية قومية عالية "ويمكن القول

بشكل صحيح إن الدراسة المقارنة والتاريخية للأسرة الهندو أوروبية قد بدأت مع راسك وغريم⁴⁰.

رابعاً: فرانز بوب Franz bopp (1791-1867م):

يعدّ فرانز بوب المؤسس الحقيقي للنحو المقارن، كما أن عام 1816م -الذي أهدى فيه بوب إلى اللسانيين مقارنة لغوية بين السنسكريتية، وبعض اللغات الأوربية الأخرى- يظل تاريخاً مذكوراً في اللسانيات، إذ لم يكن هذا العام بداية عهد المقارنات في الدراسات اللغوية فحسب؛ بل كان أيضاً بداية اللسانيات ذاتها، بوصفها مجالا معرفيا يتصف بالنظامية والاستقلال والواقع أن فرانز بوب كان أول من أكد أن قضية الروابط المتبادلة بين اللغات الهندية الأوربية يمكن أن يكون موضوعاً لدراسات خاصة، وكانت هذه من فضائله الكبرى⁴¹ في التأسيس المنهجي للمعرفة العلمية.

وأما ما يمكن أن نتلمّسه عند بوب من سمات العلمية في نظريته للغة، هو أنه عدّها كأننا حيّا ندرس لذاتها حيث يقول: "إنّ اللغات التي نتناولها في بحثنا هذا قد درسناها لذاتها بوصفها غرضاً من الأغراض العلمية، ولم ندرسها كوسيلة من وسائل المعرفة"، ويستحيل علينا -يقول مونين- ألا نرى في هذه العبارة مع حفظ الفارق، صورة مسبقة لآخر عبارة في (دروس دي سوسير) deSaussure ولعلّها انحدرت منها⁴².

وقد أدّى جاكوب جريم، وفرانز بوب، دوراً كبيراً في مسعى تأسيس الدراسة المقارنة لعائلة اللغات الهندو-أوروبية عام 1850م، على قاعدة محدّدة وموثّقة، إذ أدّت إلى الادّعاء الذي يقدّمه ماكس مولر (1834-1898م) بأن دراسة اللغة أصبحت أخيراً علماً⁴³. وهكذا مهّدت هذه الدراسات لنشأة اللسانيات.

خامساً: أوغست شلايشر August schleicher (1821-1868م):

منذ عصر النهضة والتفكير الجدّي والبحوث الحقيقية عن العلاقات التاريخية بين اللغات مستمرة دون توقف، ولكن مع شلايشر أخذ المنحى طريقاً آخر، فقد أشاد مؤرخو علم اللغة جميعاً بطريقته الدقيقة والصارمة ووجدوا عنده لأول مرة علماً صوتياً حقيقياً⁴⁴، وقد استخدم شلايشر "عند سعيه إلى بحوث لغوية تاريخية أكثر دقّة مصطلح Lautgesetz (القانون

الصوتي)، الذي لم يكن بعد قد مورس لديه في نظام من المفاهيم، ولم يصر مفهوما مركزيا إلا في علم مناهج النحاة الجدد⁴⁵. وبالموازاة مع التقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية "فقد قدّم عالم النبات شلايشر صيغة قطعية حاسمة للنظرية القائلة بأن اللغة جهاز عضوي، وبالتالي لا يكون علم اللغة علما إنسانيا؛ بل هو علم طبيعي"⁴⁶. وعلى هذا تبنّى شلايشر كلما جاء به تشارلز داروين (C.Darwin) في كتابه: أصل الأنواع الحية (1859م)⁴⁷، حيث قدّم داروين تفسيره الخاص بنظرية تطوّر الأنواع، فافتتح كثير من الباحثين بأن أسس التطوّر، ينبغي أن يلقى عليها الضوء في صور أخرى، وقد طبّقت هذه الفكرة في اللسانيات على يد الألماني أوجست شلايشر⁴⁸، تحت هذا التأثير.

وقد دافع ماكس مولر (1823-1900م) عن أفكار شلايشر، كما اتّفق معه في القول بأن "اللسانيات ينبغي أن يكون لها مكان بين العلوم الطبيعية، واتّفق معه أيضا في تحديده للعلاقة بين اللغة والفكر، ورأى ماكس مولر أن اللغة هي الأداة المباشرة للفكر البشري، وأما النقطة الجوهرية في فكر ماكس مولر -التي خالف فيها شلايشر- فهي أن اللغة ليست كائنا حيا مستقلا، بل رأى أنها متّصلة بعملية الكلام عند البشر والصلة المباشرة بين اللغة والفكر تجلّت بأوضح صورة في ظاهرة الكلام، ومن ثمّ صرف الاهتمام إلى قضايا اللغة المنطوقة، وقد كان هذا التّصوّر إنجازا متميّا⁴⁹. وهكذا صرف ماكس مولر الاهتمام من جديد إلى قضايا النطق، وله الفضل في نشأة علم اللغة التاريخي، يقول جورج مونين: "ويمكننا من جهة أخرى أن نوخّر نشأة علم اللغة التاريخي حتى مجيء شلايشر؛ أي إلى حوالي عام 1870م، ويكون سندا حينئذ ظهور تلك الطرق العلمية التي لم تعد تستهدف إثبات القرابة بين اللغات؛ بل معرفة جميع التّطوّرات اللفظية في لغة ما، من خلال مجموع تاريخها"⁵⁰. وهكذا أخذت الدراسات المقارنة مع شلايشر منحى آخر، هو المنحى التاريخي.

النحاة المحدثون:

نادى النحاة المحدثون بأن تتجاوز اللسانيات التاريخية مجرد وصف التغيرات اللغوية المتعاقبة، وأن تسعى إلى تفسيرها، بالكشف عن الأسباب المؤدية إليها، "وما من جيل قبلهم أصرّ إصراراً واضحاً على الاتساق التام للقواعد الحاكمة على وقوع الظواهر الصوتية؛ فقد رأوا أن الأصوات تتغير وفقاً لقوانين ثابتة"⁵¹.

وكان تأثيرهم في دراسة اللغة متفرداً، ومتجاوزاً عصرهم ومكانهم، وقد أمسكت هذه المدرسة بزمام علم اللغة في أوروبا كلها، ولا أحد يجادل في الخدمة المتفردة لهؤلاء الباحثين بالنسبة لتأسيس فهم علمي، لعلمي الأصوات والصيغ (الصرف)، وألفت في ذلك الوقت مؤلفات لا نظير لها، مثل كتاب كارل بروجمان الأساس في النحو المقارن للغات الهندو جرمانية (grundriss der vergleichendengrammatik der indogermanischensprachen) (1886م)⁵².

وعموماً فإن تأثيرهم بمنهج العلوم الطبيعية كان واضحاً، وذلك بتشبّثهم بمبدأ الاطراد التام للقوانين الصوتية، وعدم شذوذيّتها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت محاولة تجاوز المأزق الإبيستيمي الذي آل إليه المنهج التاريخي؛ بل الذي قد آلت إليه مقولة الزمانية، تعدّ ممهّداً حقيقياً لتأسيس الآنية والوصفية، وذلك لإيمانهم بانباء الظاهرة اللغوية على مبدأ القوانين الصوتية⁵³. وهكذا دخل مفهوم القانون الصوتي-هذا المفهوم الذي وضعه من قبل جاكوب جريم، وأدخله أوغست شلايشر مصطلحاً- للارتفاع بعلم اللغة إلى علم القوانين.

وفي هذا الوقت كان دي سوسير (1857-1913م) de Saussure يقّدّم خدمات كبيرة للسانيات التاريخية، متمثلاً في كتابيه (دراسة حول النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندو أوروبية) و(حالة الجرّ المطلق في اللغة السنسكريتية)، قبل أن تأخذ أبحاثه منحى آخر. وعلى هذا تعدّ أعمال دي سوسير مرحلة مفصلية حقيقية بين موضوع وآخر، بين منهج وآخر، لكن ضمن حلقة في سلسلة متواصلة من الفكر الإنساني اللغوي.

نشأة اللسانيات:

ليس هناك ما يمنع من إمكانية الكشف عن العلاقات والأنساق الاجتماعية على غرار العلوم التجريبية فقد حاول كل من أوجست كونت (1798-1857م) وهربرت سبنسر Herbert Spencer (1820-1903م) العثور على ما يجب على كل الأنظمة الاجتماعية أن تفعله للحفاظ على بقائها، وهذا بعد أن أدخل مونتسكيو Montesquieu (1689-1775) (أحد المؤسسين الأوائل للعلم الاجتماعي) المنهج العلمي في دراسة المجتمعات البشرية، لذا أعجب كونت Conte بمؤلف (روح القوانين) كثيرا، واعتبر (أن القوة الكبيرة في هذا العمل التذكاري، تكمن في اتجاهه لاعتبار الظواهر السياسية، موضوعات تخضع لقوانين ثابتة)، وقد افترض "كونت" وجود علاقة اعتماد متبادل بين الأجزاء في النظام الاجتماعي، وتعبير "كونت" فإن (كل عنصر من العناصر الاجتماعية العديدة ينظر إليه دائما بالنسبة لكل العناصر الأخرى... وكل دراسة منعزلة للعناصر الاجتماعية تعدّ غير عقلانية، وسوف تظل عقيمة)⁵⁴.

وهكذا تأسس (علم الاجتماع) على يد إميل دوركايم (1858-1917م) الذي لم يشغل نفسه بالعقل الفردي؛ بل بالعقل الفردي في ارتباطه بالآخرين، من خلال المنتجات المشتركة لتفاعلاتهم⁵⁵. وقد عدّ الوقائع الاجتماعية أشياء تشبه الأشياء التي تدرس في العلوم الطبيعية، والشئ عنده ينتظم كل موضوعات المعرفة، وقد عدّ اللغة أيضا من الأشياء، وعلى هذه التصورات؛ أو العلاقات الكلية، تم تأسيس علم الاجتماع على أسس علمية واضحة.

وتتضح علاقات علم اللغة عند دي سوسير بعلم اجتماع دوركايم؛ من حيث يرى دوركايم أن الحقائق الاجتماعية تسكن في المجتمع ذاته، وليس في أجزائه، ويرى دي سوسير أن اللغة المعينة لا توجد كاملة إلا في الجماعة، ويرى دوركايم أن الحقائق الاجتماعية ملزمة للفرد، ودي سوسير يرى أن اللغة المعينة نتاج لا يملكه الفرد إلا بصورة سلبية، وهي ملزمة للفرد الذي لا يستطيع أن يوجدها، ولا أن يغيّرها من نفسه. ويرى دوركايم أنه يجب أن يبحث التفكير الجمعي في ذاته ومن أجل ذاته، ويرى دي سوسير أنه يجب أن تبحث اللغة المعينة في ذاتها ومن أجل ذاتها⁵⁶.

ويستطيع "المرء أن يذكر بحقيقة مفادها أن الاقتصادي كان معتادا في عصر التتوير على الشروع بدراسة المشكلات اللسانية، كما فعل (آن روبرت جاك تورقو) Ann Robert

Jacques turgot الذي صنّف دراسة عن التأثيل للموسوعة الفرنسية في القرن الثامن عشر، ومعروف جيداً تأثير جي ترايد (G.trade) على مذهب دي سوسير في مسائل التبادل والقيمة وغيرها⁵⁷. والمعاملات الاقتصادية هي معاملات لغوية صامتة، تؤدّي فيها الورقة النقدية دوراً دلاليّاً متواضعاً "وهكذا تعامل التبادلات الاقتصادية بوصفها (أنماطاً معينة من المحادثة)، وتتداول النقود بوصفها (إرسال رسائل) والنظام المالي بوصفه (شفيرة)، يقول فيروشيرو روسي لاندي Ferruccio Rossi Landi: "إن علم الاقتصاد هو بمعناه الدقيق دراسة ذلك الجزء من التواصل غير اللفظي"⁵⁸، وتبقى هناك أسباب أخرى لربط علم الاقتصاد بالدراسات اللسانية.

وعلى غرار علم النفس، وعلم الاقتصاد... وعلم الاجتماع، اعتبرت اللغة ظاهرة طبيعية، يمكن أن تخضع للوصف والتجريب، وهكذا تأسس علم اللغة (اللسانيات) من مسار معرفي طويل.

الهوامش والإحالات:

¹ - ماري آن بافو، جورج إلياس رفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، تر: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط01، 2012، ص106.

² - ينظر: هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر/1997، ص23.

³ - ينظر: عبد السلام عشير، تطوّر التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، مطبعة المعارف، الرباط، ط01، 2010، ص33.

⁴ - ينظر: محمد سعيد احديد، المعجم الأكاديمي في علم اللغة والصوتيات، دار شموع الثقافة، بنغازي، ليبيا، ط01، 2007، ص176.

⁵ - عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د، ط) 1986، ص42.

⁶ - ينظر: كتاب (العقل في القرن العشرين) ل: (برتران سان سرنان)، تقديم: أمالي البدّاح، سلسلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد: 04، مجلد: 03 أبريل/يونيو، 2002، ص145.

- 7 - ينظر: سيد نفادي، التقدّم العلمي ومشكلاته، عالم المعرفة، عدد: 02، مجلد: 29، أكتوبر/ ديسمبر 2000، ص 14-15.
- 8 - ينظر: عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 02، 2003، ص 69.
- 9 - ينظر: المرجع نفسه، ص 75.
- 10 - ينظر: المرجع نفسه، ص 76.
- 11 - المرجع نفسه، ص 90.
- 12 - المرجع نفسه، ص 91.
- 13 - ينظر: المرجع نفسه، ص 92.
- 14 - ينظر: المرجع نفسه، ص 81.
- 15 - ينظر: المرجع نفسه، ص 81-82.
- 16 - ينظر: المرجع نفسه، ص 104.
- 17 - ينظر: إبراهيم مصطفى إبراهيم، مفهوم العقل في الفكر الفلسفي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 1992، ص 115.
- 18 - ينظر: عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، ص 106.
- 19 - ينظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 02، 1996، ص 60.
- 20 - ينظر: إبراهيم مصطفى إبراهيم، مفهوم العقل في الفكر الفلسفي، ص 121-122.
- 21 - أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 01، 2006، ص 54-55.
- 22 - ينظر: إبراهيم مصطفى إبراهيم، مفهوم العقل في الفكر الفلسفي، ص 121.
- 23 - عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، ص 128.
- 24 - ينظر: ميلا إيفيتش، اتجاهات البحث اللساني، تر: سعد مصلوح، وفاء كامل فايد، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط 02 (د، س، ط)، ص 05.

- 25 - جورج مونين، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، تر: بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، سوريا، (د،ط)، 1973، ص83.
- 26 - ينظر: هنري روبينز، موجز تاريخ علم اللغة، ص41-42.
- 27 - المرجع نفسه، ص47.
- 28 - ينظر: جورج مونين، تاريخ علم اللغة، ص 90.
- 29 - ينظر: المرجع نفسه، ص92.
- 30 - ينظر: المرجع نفسه، ص104.
- 31 - هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة، ص 170
- 32 - ينظر: المرجع نفسه، ص178.
- 33 - ينظر: المرجع نفسه، ص180.
- 34 - جورج مونين، تاريخ علم اللغة، ص125.
- 35 - ينظر: دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص11.
- 36 - بريجيت هارتشت، مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعومتشومسكي، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، (د،ط) 2004، ص39.
- 37 - ينظر: هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة، ص226-227.
- 38 - ينظر: المرجع نفسه، ص279.
- 39 - ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط5، 2015، ص88.
- 40 - هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة، ص287.
- 41 - ينظر: ميلكا إيفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص49.
- 42 - جورج مونين، تاريخ علم اللغة، ص183.
- 43 - روي هاريس، تولبت جي تيلر، أعلام الفكر اللغوي التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير، تر: أحمد شاکر الكلابي، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ليبيا، ط01، 2004، 23-22/01 .
- 44 - ينظر: جورج مونين، تاريخ علم اللغة، ص199.

- 45 - بريجيت هبارتشت، مناهج علم اللغة، ص36.
- 46 - المرجع نفسه، ص202.
- 47 - بريجيت هبارتشت، مناهج علم اللغة ، ص202.
- 48 - ينظر: ميلكا إفيش، اتجاهات البحث اللساني، ص57.
- 49 - ينظر: ميلكا إفيش، اتجاهات البحث اللساني، ص60.
- 50 - جورج مونين، تاريخ علم اللغة، ص187.
- 51 - ينظر: ميلكا إفيش، اتجاهات البحث اللساني، ص84.
- 52 - ينظر: بريجيت هبارتشت، مناهج علم اللغة، ص55.
- 53 - ينظر: عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسيه في اللسانيات، مؤسسة ابن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، (د،ط)، 1997، ص200.
- 54 - ينظر: ميشال تومبسون وآخرون، نظرية الثقافة، تر: علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد: 223، جويلية، 1997، ص195، 201.
- 55 - ينظر: المرجع نفسه، ص224.
- 56 - بريجيت هبارتشت، مناهج علم اللغة، ص97.
- 57 - رومان ياكبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، تر: علي حاكم صالح، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 2002، ص64-65.
- 58 - ينظر: المرجع نفسه، ص65.